قلوب صغيرة

قصة بقلم محمد نوري بشير

سرى في حينا الفقير ، خبر مزعج ، وهو أن جارنا الفلسطيني الطيب القلب ، قد مات بعد مرض دام ثلاثة اسابيع لم يذهب خلالها الى الطبيب لانه لم يكن يملك ثمن المعاينة والدواء .. وكان أثر الفاجعة مؤثرا وخاصة علينا ـ نحن الاطفال ـ فقد كنا نحبه ، لطيب اخلاقه ، وسماحة روحه، وزيادة على ذلك فقد كان بالنسبة الينا ـ جواز المرور ـ الذي يسمح بدخول الملعب البلدي كلما :جريت فيه مباراة رياضية لانه كان يعمل مستخدما في أحد النوادي .

*

وقف أحمد يتطلع من بعيد ، الى الموكب الصامت المتجه نحوه ـ خلا همسات وتمتمات وأصوات خافتة ـ أحدثتها حركات الاطراف ، واحتكاك الاحذية بأرض الشارع الساخنة من أثر سياط شمس الظهيرة الحارة ..

وكان قلبه يدق ـ لسبب لا يدري كنهه ـ بعنف وشدة كأنه يحاول الخروج من الضلوع ليهرب .. فهو كما يبدو لا يريد رؤية منظر مؤلم ـ وان يكن واقعيا ـ ولا يميل الى التفكير في أمر هذا اللغز المحير الذي يحيط من كل النواحي بل ويتقدم كل موكب يشابه هذا الموكب ..

وكأنما أحست عيناه باحساس قلبه ، فأخذتا تتحركان وتنظران الى الامام حيث بدت نهاية « اللعبة المعقدة » ! ، وقد سبق التابوت جيش عرمرم من مناظر أتقنت اخراجها أجيال وأجيال من الناس :

ياقات أزهار على شكل أطواق « هولاهوب .. » يحملها صبية صغار ، بصداريهم السوداء ، وقد توسطتها أوراق كتب عليها أسماء المعزين .. وضحك ساخرا :

ـ ماذا جنت هذه الازهار حتى قطفت ، أفلا يكفي من مات انه مات ... ما كان أحلاها فيما لو بقيت مع شجرتها وأترابها يرقصن ويتمايلن، وما كان أجمله من منظر وهن متعانقات تحت شمس الغروب أو الفجر وفراشة حسناء ـ من لونها ـ تتنقل خفيفة سريعة .. ولكن الانسان أناني ، فاذا تفجع وحزن أراد أن يعم هذا التفجع والحزن كل الناس بل وكل مخلوق ...

ويتبع ذلك تابوت .. لا تعرف أنه تابوت .. فهو مغطى بشال عجمي ، وقد زانه ورد أصفر وأحمر ويعلو المقدمة طربوش ما انفكت « شرابته » تهتز لحركات حامليه وتبدل طول قاماتهم أو اكراما لعبث الهواء وكأنه يقول له :

ـ أرأيت يا صديقي ، لست حزينا على الراحل ، لانني أعلم أن حزني لن يجدي فتيلا .. ويرد الهواء عليه ساخرا :

ـ ولكن ، ماذا بقي لك من مركز في الدنيا ؟ .. ماذا بقي .. لقد ذهب الذي كنت تعلوه وتحميه ذهب الى غير رجعة .. مضى وسيندثر.. ومكانك الان الاهمال ، حيث سيطغى على لونك غبار الزمن . أما أنا ، فسيكون لي دوما من أعبث بشعره وطربوشه وأمازحه حتى قد استهزىء منه ..

ويقول الطربوش : ـ على كل حال ، بقيت .. بينما ذهب هو ..

واستيقظ من شروده على صوت قرامل باص مسرع وقف بجانبه فجأة حين رأى طلائع الجنازة المهيبة .. وزفر زفرة عميقة وحدق في ـ الباص وسائقه ـ بينما خرجت من نوافذه رؤوس أطفال في أحضان أمهاتهم ، ونساء حاليات ، وشيوخ يسعلون ، وشباب أنيقين ، منهم من يدخن على الرغم من وجود كلمة داخل الباص : « ممنوع التدخين » ، غير أن شيئا مهما واحدا ، جعلهم متشابهين ، هذا الشيء هو الفضول وحب المعرفة .. وتسأل احدى النساء صارخة :

ـ يا ولد .. انت يا ولد .. من هو الميت ؟ .. وبعدئذ ، تدخل رأسها لتتحدث ـ باعتزاز من يملك مادة نفيسة يريها لصاحبه ـ وتتشدق بالمعلومات التي التقطتها الى جارتها ، ومن ثم الى من هم في الباص أجمع .. ويقول أحدهم :

ـ ان الميت شخصية على ما يظهر ... رحمه الله .. ويرتفع صوت آخر :

ـ صحيح .. انظروا ، النعش معنى به ، مغطى ، مزركش ، منمق .. وكمن يستدرك فجأة : ثم هناك باقات الزهر ، والايتام ، والمشيعون.. يا الله انها حقا ... ويقاطعه أحدهم ـ دون معرفة سابقة ـ :

ـ وما جدوى كل هؤلاء المشيعين ؟ . هل يفيدون الميت وهل سيشفعون له ؟. أم سيكونون واسطة كي يدخل الجنة .. واذا فكرنا أكثر : هل يعرف الميت عددهم ؟. بل ما جدوى ذلك لو علم ؟. وترتسم على فمه ابتسامة فوز شوهاء وهو يقول :

ـ انظروا.. ان أكثرهم غير صادق في شعوره نحو الفقيد الغالي.. أو هو لا يعرف التمثيل ولا يجيده . هاكم من يضحك دون قهقهة .. لكن انفراج شفتيه أكبر منها لو فعل .. ولاحظوا ذاك الذي توسط اثنين أثقل آذانهما بالكلام فهي ـ ولا شك ـ فرصة طيبة لنشر أحدث النكت..

ولا تفوتوا مشاهدة هذا «الروميو العتيد » ـ ذي البذلة السوداء ـ وهو ينظر الى أعلى ليرى من هن على الشرفات المطلة المتسائلة .. أرايتم، اللعنة عليهم .. ان دورهم في التشييع كدور باصنا .. انه لا يحس ولا يتألم .. ان هؤلاء يشيعون ، ليشيعهم الآخرون حين يموتون .. بينما يقول شيخ ، له عمامة كبيرة بيضاء: لا حول ولا قوة الا بالله العلي القدير .. انا لله وانا اليه راجعون .

الآن تفيد الحسنات ، الآن وقت المحاسبة والجزاء .. هنا ينفع القلب الطيب ، والنية الحسنة ومع شديد الاسف ـ ما أقل من هم على هذه الشاكلة في دنيانا هذه .. ـ فالناس تنعتهم بالجنون وخفة العقل .. ويدير رأسه نحو الموكب وصوت فيه بحة يخرج :

ـ اي نفع للمادة وأية قيمة لها ؟. لقد ترك وراءه كل شيء ومضى .. شأنه في ذلك شأن من لا يملك أطيانا ولا أموالا . وكان مقدرا ـ لاحمد ـ أن يسمع أكثر مما سمع لولا أن سار مزمجرا .. وكأنما سرت عدوى التفكير اليه ، فمشى مطرقا تتقاذفه دوامات : دوامة من الاسئلة ، ودوامة من الاخيلة ، ودوامة تأمل ، وأخرى للاوهام .. وما لبث أن هتف فجأة :

ـ يا لسوء حظ أولاده .. كم هم مساكين .. لم يقنع القدر

ـ التتمة على الصفحه ٧٩ ـ

قلوب صغيرة

ـ تتمة المنشور على الصفحه ٥١ ـ

بمصيبة واحدة بل جعلها اثنتين : فلقد ابتدا الفحص اليوم .. ولن ينتهي بعد اسبوع ، فبأية صورة سيذهبون غدا ، وكيف سيتقدمون اليه وكيف يستطيعون الاجتهاد والمراجعة وقد فقدوا عماد أسرتهم ؟. لا ... ليس الامر فادحا كما اخاله .. انهم أغنياء ، وطبيعي ان موته لن يغير الا شيئا سطحيا في نمط معيشتهم وبذخهم ، لقد خلف لهم ثروة كبيرة : عقارات وماشية وربما مالا في مصرف .. وقد يكون مفلسا ، لا يملك فرنكا .. وكل هذه الامور التي رآها مظاهر بمظاهر .. قد يكون .. من يدري ...

ولم يستطع ان يمنع خياله من تصور حالهم هم فيما لو فقدوا اباهم .. أوه !. انه لايستطيع ان يرى او يتصور لهول الرؤية والصورة .. لا .. لا .. دع عنك هذا الفال يا احمد .. من أين أتاك هذا الخاطر القاتم .. ورغم ذلك ، رأى اخوته حفاة عراة تقريبا ، وسخين .. بين جنبات الشوارع والازقة .. وبشر يمرون ويرون ، وكأنهم لا يمرون ولا يرون .. وتصور اخاه الصغير ـ عادل ـ في حضن امه ، وهي تفترش الرصيف المطروق مادة يدها في ذل وهوان مستعطية ..

بينما استلقى بجانبها اخوه الثاني مستسلما لسلطان النوم ..

عبثا حاول قمع هذه الاخيلة المتشائمة . لاتندمج معها ياأحمد .. انها مجرد اوهام ، اوهام تافهة لاقيمة لها ولا وزن .. ولكن التفكير يعاوده :

ـ لن ادع امي واخوتي يعيشون على تلك الحالة .. لن اتركهم ينامون على الارصفة ، وقد لطخ ارجلهم لون قاتم بشع ونام الذباب على وجوههم .. سأشتغل عاملا في النهار وسأجتهد في تحصيل العلم ليلا.. ثم ادخل الكلية العسكرية كي اتخرج ضابطا .. ابدا !. لن يشغلني العمل عن نيل البكالوريا .. سأساهم في تحرير فلسطين الحبيبة .. وسأعود الى جليلها .. مع امي واخوتي ومع العائدين .. وسأنتقم لعمي الذي صرعته رصاصات اليهود وهو على مئذنة الجامع في حيفا يؤذن ..

وأبصر طفلا يحبو في دارهم بحيفا .. وكان هو .. ثم تتابعت الاطياف : فاذا برصاص وانفجارات واتربة وهو مضموم بقوة الى صدر امه التي تركض حافية القدمين ، والقنابل المضيئة تفجر ماحولها وتبعثر من حولها أشلاء وكتلا ..

وكان قد بلغ الزقاق الذي يقطنونه .. وسمع اصواتا .. ولم يصدق ماسمعت اذناه .. بكاء وعويل وصراخ يخترق جدران الكوخ الساكت الساكن .. ولم يكن من العسير ان يتبين في البكاء ، صوت اجهاش امه ، ومن الصراخ صراخ اخوته .. انه امر غير معقول .. انه مستحيل .. انه لايصدق ولا يريد ان يصدق .. انه لايعترف بموت ابيه !..

*

وخرجنا نحن الصبية الصغار خلف الرجل الذي طالما امسكنا يده بمحبة ورفق .. خرجنا وراء الرجل الذي كان يريد ان يدفن في فلسطين ..

اجل !. مشينا وراء تابوت لايستره شال او ورد ورأينا الناس يشيحون رؤوسهم بسرعة وهم يقولون :

ـ انه فقير .. فقير جدا ..

لكنهم كانوا اغبياء ، اغبياء جدا ، فلم يدروا اننا صادقون في بكائنا وحزننا . وان بركانا من عواطف زاخرة كثيرة متنوعة يتفجر في قلوبنا الصغيرة ..

حلب — محمد نوري بشير

الشهادة في «اصابعنا التي تحترق»

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

فيضطر الى العمل في مدرسة مشبوهة . ويجد لنفسه المبررات التي سرعان ما تتهاوى امام وجدانه بالتدريج. واذ ينخرط في التزام الاخلاص لعائلته ، ينخرط كذلك في التزام الهدف القومي في مجلته . وفي كلا الالتزامين تنبثق مشكلات عاطفية وانضوائية مختلفة ، يسعى سامي الى تجاوزها بصبر ورزانة . ولكن مشكلة كبرى تظل تؤرقه وهي ان شخصيته الاصلية ، شخصية الاديب ، يكاد يفقدها هما بعدهم ، ومسؤولية بعد اخرى . فأعباء المجلة من مادية وتحريرية ملقاة كلها على عاتقه ، وهو في الوقت الذي يحس ان المجلة تقدم ادباء للعربية ، الا ان مجلته تلك تكاد تضيعه هو كأديب .

هكذا فان القارىء اذا ما حاول ان يقصي عن خياله القصص الجانبية للاشخاص الاخرين في الرواية ، والتي لم تستكمل نسيجها التكويني، فانه سوف ينفذ الى قصة اخلاص وكفاح لانسان او لانسانين معا عاشا مشروع بيت صغير شريف ، وعاشا مشروع مجلة كبرى كان لها اكبر الاثر في دور الانبعاث القومي والادبي .

فاذا لم تقدم رواية (اصابعنا التي تحترق) ذروة فنية خارقة ، او تجربة وجودية معمقة معقدة ، او مشكلة ميتافيزيقية شاملة ، ان لم تقدم الا تلك القصة الماورائية لكفاح زوجين ، لكفاح اديبين ، لانتصار مشروع ادبي كبير ، فانه يكفيها انها من الروايات الشاهدة على بعض من مشكلات جيلنا ، في ازماته الفردية ومطامحه الالتزامية الكبرى .

ولا يملك القارىء الناقد الا ان يدع في كثير من الاحيان آلاته التشريحية ومقاييسه الثقافية المعقدة ، ليندمج في قصة صدق وواقع، وتواضع انساني ازاء هموم شاقة متناقضة . ولعل لهجة السرد البسيطة كانت منساقة بوضع نفسي اصيل هو الاعتراف ، الاعتراف ازاء النفس اولا ، وازاء الاخرين كل الاخرين المجهولين ثانيا . وبم يعترف الاديب ان لم يملك شهادة في الاصل ؟ هذه الشهادة هي التي تطبع ادب العصر اليوم بصورته الفاجعية الواقعية ، بدل فاجعية الاسطورة او الوهم .

ومع ذلك فان هذه الشهادة كان يمكن ان تصبح اشمل واخطر . فلدى الكاتب من نماذج سلوكية متعددة متناقضة ، اكتسبها من تجربته الطويلة مع اصناف النخبة والدارجين على طريق النخبة ، لديه من هذه النماذج ما يساعده ، فيما لو اراد ان يكتب مأساة امة صاعدة من خلال عينة خطيرة تدعى التأسيس لروحية حضارة مستجدة .

ولكن النخبة هذه قد احاطت نفسها بحصون التابو المبتكرة ، بحيث قد تسمح لنفسها بفض محرمات اخرى ابسط ، في الوقت الذي تخترع هي طقوسها وديانتها الوثنية المعقدة .

وربما كان شعوري اخيرا عندما انتهيت من الرواية ان الكاتب او الشاهد لم يقل كل ما كان انتواه على الاقل وهو يستعد لكتابة شهادته. لقد ظل حريصا على الاخرين الى حد كبير ، في الوقت الذي حاول فيه ان يذيب من نرجسيته باصرار ودأب ، حتى يتيح لنموذجيته الانسانية الصافية ان تبرز وان تنتصر .

لقد ادى شهادة عن كفاحه وعقباته وانتصاراته . ادان نفسه مرارا وبرر نفسه . والمح الى ادانة بعض اخرين . وقد يقبل او يرفض . ولكن لا بد لكل من يحاول ان يحكم هو الاخر بدوره عليه،ان يتأثر اولا بالصدق الاكيد . بصفة الصدق هذه يفترق زيف الوثيقة عن اصالة الوثيقة . بهذه الصفة يمتزج الفن بالحقيقة .

وذلك هو اصعب امتحان تدخله كل رواية شاهدة حية .

مطاع صفدي